Thaqafat Ar. Side 2/6/07 11:07 AM Page 22

الرؤية البرزخية للوجود

عند ابن عربي

محمد المصباحي *

البرزخ لفظ قرآني، تتعدد دلالاته وتختلف إلى درجة التضاد ؛ فهو يفيد دلالة الحاجز والمانع من الأوْبَة الزمنية إلى الدنيا ؛ ودلالة الاتصال المكاني بين أمرين متقابلين أو دلالة الجمع بين الظواهر المتعارضة ؛ ويفيد دلالة الميزان الخفي الذي يفصل بدقة وإتقان بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين التنزيه والتشبيه، بين الحق والخلق. وقد كانت هذه الدلالات هي الخميرة القرآنية التي تعاطى معها ابن عربي ليحوّلها إلى مفهوم نظري له مقامات ووظائف متباينة، ومبدأً تفسيراً، وعالَماً ميتافيزيقيا قائما بذاته. إن هذا الغنى جعل البرزخ غير قابل للتحديد، لاسيما وأن كائناته تتميز بالطبيعة البينية، فهي وسط بين الإطلاق والتعين، لا هي مطلقة مجردة من المادة تماما لأنها تملك مادة خيالية، ولا هي متعينة تعينا وجوديا لأنها لم تشم بعدُ نَفَس الرحمن، فتنتقل من الإطلاق العدمي إلى التعين الحسي ؛ هذا علاوة على أن البرزخ كائن متخيَّل أو معقول، وليس أمراً محسوسا كما هو الشأن بالنسبة للمتقابلين اللذين يفصلهما أو يجمع بينهما.

لكن بالرغم من عدم قابليته للتحديد، فإننا رصدنا للبرزخ مجموعة من المعاني الأساسية التي يمكن تصنيفها وردها إلى أربع، أولهما أصلي، والثاني نظري إجرائي، والثالث فعال، والرابع ميتافيزيقي.

١- يجمع المعنى الأول للبرزخ بين **البينية والفصل**. فالبرزخ فاصل دقيق من شأنه منع اختلاط شيئين أو حقيقتين متقابلتين، وتحول أحدهما إلى ضده، أو انقلابه إلى نقيضه. ودلالة البرزخ هذه هي دلالة شاملة إلا على نفسه، إذ تتصف به كل أنحاء الوجود الطبيعية والروحية، المعرفية والحسية والخيالية والميتافيزيقية، حيث يفصل البرزخُ بين الجواهر والأماكن والأزمنة والأفعال والأعراض والأحوال والأفكار والإحساسات وكل الموجودات بدون استثناء. إنه مبدأ شامل للخلق والتفسير والتأويل. وقد وجدنا أن فعل الفصل يرتبط بأفعال أخرى لازمة له، كالتمييز والحفظ، وهما دلالتان مرتبطتان ؛ فمعنى أن يمنع البرزخ انقلاب الحقائق إلى غيرها هو أن يحفظها، وهو بهذه الجهة شبيه بالعقل الذي هو أداة حِفظ نظام الكون. لكن ليس معنى هذا أن الفصل البرزخي هو اسم آخر للفصل النوعي الذي يقول به الفلاسفة، لأن البرزخ لا يدخل كجزء مقوّم في ماهية الشيئين اللذين يفصلهما، أي لا يشارك في تكوينهما، بل يظل محايدا على «مسافة وهمية» منهما. وهذه المسافة الوهمية تجعله فاصلا نوعيا بين هويات تنتمي إلى الجنس الواحد نفسه، فبين المياه العذبة والمياه المالحة برزخ يمنع فساد أحدهما بالآخر، وبين الحياة والموت برزخ يحول دون رجوع الميت إلى الحياة بعد ندمه على ما اقترفه من أفعال، وبين الجنة والنار برزخ يمنع ساكني أحدهما للانتقال إلى الآخر... الخ. وفي إطار هذه الوظيفة المزدوجة

* كاتب من المغرب.

Thaqafat Ar. Side 2/6/07 11:07 AM Page 23

(البينية والفصل) أشار الشيخ الأكبر إلى وجود رجال للبرزخ، يسميهم بأسماء مختلفة، «كرجال الحد» و«رجال الأعراف» و«رجال الرحمة»: « والأعراف سور حاجز بين الجنة والنار، برزخ باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب، فهو حد بين دار السعداء ودار الأشقياء، دار أهل الرؤية ودار الحجاب، وهؤلاء الرجال أسعد الناس بمعرفة هذا السور، **ولهم شهود الخطوط المتوهمة بين كل نقيضين.**.. فلا يتعدون الحدود. وهم رجال الرحمة التي وسعت كل شيء، فلهم في كل حضرة دخول واستشراف، وهو العارفون بالصفات التي يقع بها الامتياز لكل موجود عن غيره من الموجودات العقلية والحسية »(١). غير أنه إلى جانب وظيفة الفصل المنطقي الذي يحول دون اختلاط الأنواع، يلعب البرزخ، في مجالات أخرى، دور الجمع، فيكون إما ساحة لالتقاء الأمرين المتضادين، أو فضاءً لتوليد أمر ثالث منهما، ففي برزخ الفجر يلتقي الليل والنهار، وفي برزخ النفس يلتقي الفجور والتقوى، وفي العالم يلتقي الوجود والعدم، وفي الإنسان يلتقي الحق والباطل. وهنا يتوقف البرزخ عن أن يكون أمراً غير منظور، ليصبح ذا كيان مشار إليه ومتميز عن المتقابلين اللذين يجمع بينهما في ذاته.

٢- وإذا كان المعنى الأول أقرب إلى الثبات، فإن المعنى الثاني، على العكس منه، ذو بعد حركي، يدل على كل **لحظة انتقالية**، أي على كل لحظة مؤقتة توطئ لتَحوّل منتظر للشيء إلى مقابله، أو على كل معبر بين ضفتين متقابلتين. وقد أحسن ابن عربي في التعبير عن هذا المعنى عندما وصف البرزخ » بمجلس الراحة « بين المواقف المختلفة. ومن الواضح أن هذا المعنى – بخلاف المعنى الأول الذي هو من سياق الوجود لأنه يقوم بحفظ الحقائق من الاختلاط والالتباس – ينتمي إلى سياق الصيرورة، إذ يصبح البرزخ في هذه الرؤية مجالا لتحوّلٍ دائم للموجودات(٢). وهذا التحول قد يكون داخل الشيء نفسه، أو بين شيئين متقابلين، ولكنه في جميع الأحوال يشمل كل الموجودات المادية والروحية، الدنيوية والأخروية. فكل ما هو بهذه المثابة برزخ: الفاتر برزخ بين الحار والبارد، والإسماع برزخ بين المخافتة والجهر، والمنافق بين المؤمن والمسلم. وغير خاف أن هذا المعنى يقتضي ضمنا ضرباً من الجمع بين المتقابلين.

٣- المعنى الثالث للبرزخ، بخلاف المعاني السابقة، يشير إلى **دوره الفعال**، وهو تلك القدرة التي تسمح له بتجسيد المعاني وإلباسها صورا خيالية في عالم الرؤى والأحلام أو في عالم الآخرة كي تصبح قابلة للرؤية والرؤيا، فيتجسد العلم في صورة اللبن، والموت في صورة كبش، وجبريل في صورة دحية الكلبي. وهذه القدرة، كما مر بنا، لا تخضع لا لمنطق العقل ولا لقوانين الحواس، وإنما لدينامية الرمز والتأويل والتحويل. ولهذا لا ترتبط أفعال البرزخ بالزمن بمعناه الدقيق، لأنه يرمي بالحالم أو الرائي إلى عوالم الماضي السحيق، أو آفاق المستقل البعيد.

٤- المعنى الرابع للبرزخ يتميز بالثبات، لأنه يشير إلى البرزخ الأول أو برزخ البرازخ ؛ وهو **عالم ميتافيزيقي** قائم بذاته يضم كل الممكنات، كالموجودات والأعراض والأفعال والأحوال والعبادات على شكل صور خيالية، وهي التي اصطلح عليها ابن عربي بالأعيان الثابتة. وهذا العالم، الذي هو عالم المثال أو عالم الخيال المنفصل، هو الذي يصدر عنه العالم الطبيعي، وهو الذي تمتد إليه عين النائمين والأولياء لشهود صور الأشياء والحوادث الآتية أو الماضية. وهذا البرزخ ذات واحدة غير قابلة للانقسام، غير أن له وجهين، أحدهما ينظر به إلى العدم المطلق، والثاني ينظر به إلى الوجود المطلق، وهذا هو معنى الثبوت الذي يجمع بين العدم والوجود.

هكذا يتبين لنا أن البرزخ لفظ مهيمن وشامل إلا على نفسه. فقد كان بديلا ومتاخما لمجموعة من

Thaqafat Ar. Side 2/6/07 11:07 AM Page 24

المفاهيم الفلسفية التي تنتمي إلى فلسفات أفلاطون وأرسطو وأفلوطين الطبيعية والنفسية والميتافيزيقية، كعالم الصور والمثل، والماهية، والقوة والإمكان، والمادة الأولى، والعقل، والخيال والوهم. وقد استحوذ البرزخ على هذه المفاهيم بنقل مضامينها من مستوى العقل إلى مستوى الخيال، مما جعل الخيال يتبوأ مكان الصدارة في منظومة ابن عربي الفكرية، حيث صار أقوى من العقل في تفسيره لموضوعات إنسانية ووجودية وميتافيزيقية ودينية. لقد صار البرزخ بهذا النحو أداة إجرائية حاسمة لحل وتفسير جملة من المعضلات المتصلة بالموجودات والظواهر والأسرار الدنيوية والأخروية، ابتداء من الأحلام والرؤى والتنبؤات... فإلى الموت والقبر والآخرة. كما أنه صار أداة تجسيد المعاني والأعراض والأفعال والنيات والعبادات في صور حسية مجسمة حتى تراها عين الخيال في النوم الأصغر والنوم الأكبر. وكان طبيعيا أن يلجأ ابن عربي إلى إجراء تعديل على مفهوم الخيال، حتى يلائم مفهوم البرزخ ؛ فلم يعد الخيال استمرارا للجسم البشري، أي مجرد قوة نفسية داخلية يختلق بها الإنسان صور أحلامه ورؤاه وإبداعاته، وهو المسمى الخيال المتصل، بل صار قوة ميتافيزيقية منفصلة، أو بالأحرى عالَما مستقلاً وقائما بذاته، يضم صورا مجسمة لكل الأشياء المادية والغيبية، وهو الخيال المنفصل.

إن إضفاء كل هذه الأبعاد على اسم البرزخ، وتكليفه بكل هذه الأدوار، جعله يرتفع إلى مستوى المبدأ الشامل أو النظرية المتكاملة. ونحن نزعم بأن الحفر والسياحة في أرجاء هذا المفهوم وعوالمه الغريبة، كان الغرض منه نسف أنموذج نظرية العقل، أو على الأقل الحد من هيمنته، والمس بمصداقيته بوصفه أداة بشرية للفهم والتأويل والتفعيل، ونظاما طبيعيا وأونطولوجيا وميتافيزيقيا شاملا. لقد أراد بدعوته إلى الرؤية البرزخية أن يتجاوز أنموذج التجريد العقلي للحصول على المعاني والمبادئ الممسكة بنظام الكون، وتعويضه بأنموذج الرّوْحنة والتجسيد لغاية إقامة جسر للتبادل والتحول بين عالم الطبيعة وعوالم ما بعد الطبيعة. وبفعله هذا يكون قد قام بتوسيع أفق الوجود بالإحاطة بكل مراتب الموجودات، وتعميق نفاذ الرؤية إلى ما يُرَى وما لا يُرى. ولم يُخفِ ابن عربي استراتيجيته هذه حينما قال: «فإن تفطنتَ، فقد رميتُ بك على طريق **العلم بقصور النظر العقلي**، وأنه [أي العقل] ما أحاط بمراتب الموجودات، ولا علِم الوجود كيفَ هو، إذ لو كان [المُحال] كما حكَم به العقل، ما ظهر له وجود في مرتبة من المراتب، وقد ظهر ! فليس لعاقل ثقة بما دله عليه عقله في كل شيء !»(٣). وبالفعل، فإن البرزخ لا يعترف بالمُحال، ولا بالتناقض، ولا بالدور المنطقي، فيغدو كل شيء في حضرته مباحا: المحال يصير ممكنا في الرؤى والأحلام، والمتناقضان يجتمعان في الأعيان الثابتة نفسها، والزمان يصير أزلا، والهوية مغايرة، والنتيجة مبدأ. هل يدفعنا هذا إلى القول بأنه قام بتعطيل شامل للعقل والطبيعة والإنسان، ونسف عام للضرورة والسببية والنظام؟ لا نعتقد، لأنه في نظرنا لم يستطع فعلا أن يتخلص من إغراء العقل وجاذبيته وقدرته الفعالة والشاملة على جميع الأصعدة، وهو ما نقرأه في اعترافاته المتكررة في أكثر من مناسبة بشرف العقل وأسبقية المطلقة.■

الهوامش

١. الفتوحات المكية، بيروت، دار الفكر، ب.ت.، م ١: ص ١٨٨.

٢. يرد عند ابن عربي أحيانا معنى للبرزخ يشير إلى الاحتباس، مثلا نجده يقول «شأن الكامل أن لا ينحصر في البرازخ... بل له أن يتحول إلى أي صورة شاء، وينتقل إلى أي عالم أراد اختيارا»، كتاب التجليات، م.م.، ص ٣٧١ ؛ كما أنه يحكي عن ذي النون المصري أنه كان حبيس البرازخ، نفسه، ص ٣٩٣.

٣. الفتوحات، ٤: ٩٩.